

## الفصل الأول

# الثقافة وإسكاليبترها

- أولاً : مفهوم الثقافة.
- ثانياً : نشأة الثقافة وتطورها.
- ثالثاً : الثقافة غزو أم هيمنة أم اختراق.
- الهوية الثقافية.
  - الغزو الثقافي.
  - الهيمنة الثقافية.
  - الاختراق الثقافي.
- رابعاً : الإسقاط الثقافي.
- خامساً : الثقافة + الحضارة = مدنية.
- سادساً : نهاية العلم.
- سابعاً : التنوع الثقافي الإنساني المبدع.
- ثامناً : التربية والثقافة «اتصال أم انفصال».
- تاسعاً : ابن خلدون بين الجهل بالأصالة واتهامات الحداثة.
- عاشراً : فسبحان الله.

obeikandi.com

## أولاً : المفهوم :

إن مدنية أى أمة تستلزم حضارتها والأخيرة تستلزم ثقافتها وبالتالي فإن وجود مجتمع ما يتطلب بناء ثقافى متنامى يحافظ عليه المجتمع لأنه يعكس تاريخ حاجات ذلك المجتمع واستجابة مؤسساته وكياناته العقلية والفكرية إلى تلك المتطلبات فالتاريخ الثقافى متغير تابع لمتغير مستقل هو ما يلم بالمجتمع من تحديات لحضارة الأمم لأن الثقافة تنحول إلى حضارة فمدنية ثم تصبح تلك المدنية ثقافة لتستحث مرة أخرى مستوى حضارى جديد .

الأمر الذى يجعل من الوقوف على مفهوم الثقافة حاجة ضرورية نستلهم منه ما ينبغى علينا أن نضيفه فى ذلك البناء كل على حسب، إسهامه فى ميدان بحثه حيث وضع لها البعض مفهوماً : "أنها ذلك النسيج الكلى المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل وأنماط السلوك وكل ما يبنى عليها من تجديبات أو ابتكارات أو وسائل فى حياة الناس فى ظل جماعة إنسانية" (١) .

ويقول تاييلور "Tylor" أنها ذلك الكل المعقد الذى يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاقيات والقانون والعادات والقدرات الأخرى التى يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع ... وأهم نقطة فى تعريف " تاييلور " للثقافة أنها تشتمل على القدرات التى يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع (٢) .

بيد أن ما سبق جاء على شكل تعريفات أحيانا وتارة أخرى على شكل مفاهيم وهذا خلط بين التعريف والمفهوم " فالتعريف يعنى تحديد موضوع العلم وماهيته بالحد السام والجزئى بالترتيب أما المفهوم فيعنى : وسيلة من وسائل ترتيب الفكر - أو عنصر من عناصره - يستخدمه المتخصصون فى تواصلهم فى الجيل العلمى الواحد والأجيال المتعاقبة لبلوغ درجة قريبة من الدقة والاكتمال فى العلم (٣) .

هذا وقد أشار "كروبر وكلاهن" بعد فحص ما يزيد على مائة تعريف من التعريفات التى قدمها الأنثروبولوجيون للثقافة أنها لا تميز بوضوح بين المفهوم من ناحية والأشياء التى يشير إليها من ناحية أخرى ... ثم خلاصا إلى صياغة المفهوم الآتى للثقافة هى كل مخططات الحياة التى تكونت على مدى التاريخ بما فى ذلك المخططات الضمنية والصريحة والعقلية واللاعقلية وهى توجد فى أى وقت كموجات

(١) تركى رايح : أصول التربية ، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٩٠م) ، ص ٣٢٠ .

(٢) شبل بدران ، أحمد فاروق محفوظ : أسس التربية ، (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦م) ، ص ٩٢ .

(٣) ماهر عبد القادر محمد : فلسفة العلوم رؤية عربية ، (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩م) ،

بسلوك الناس عند الحاجة ... أو أنها ثقافة مجتمع من المجتمعات تمثل نسق تاريخي المنشأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية يشترك فيه جميع أفراد الجماعة أو أفراد قطاع خاص معين منها<sup>(١)</sup>.

وبذلك يتأكد لدينا أن مفهوم الثقافة لم يأخذ طريقه إلى الفهم بعد إذ أن هناك خلط كبير بين كنه مفهوم ثقافة كشيء في ذاته وبين مفهوم الثقافة كشيء لذاته وأن كل باحث يذهب في مفهوم الثقافة انطلاقاً من قاعدة أيديولوجية وفكرية معينة تجعله أسيراً لها في تناول ذلك المفهوم ولو أنهم أخذوا بالمقولة الفكرية : دراسة المحسوس تتطلب التجرد من المحسوس لبحث ذلك الموضوع بموضوعية لتوصلوا إلى حقيقة ذلك المفهوم والذي يعنى المركب بين الظواهر الاجتماعية والتاريخية يستمد وقوده من حاجات ومتطلبات المجتمع في مواجهة تحديات الواقع والمستقبل تستنفر طاقات الأفراد والجماعات لإيجاد الحلول التي تمثل بدورها محصلة نضج العقل البشري وقمة إنجازاته العلمي .

ورغم ذلك فإن "ذكي نجيب محمود" يذهب إلى أن ذلك المفهوم - الثقافة - هي الكل المتكامل المتجانس والذي يتألف من أجزاء مختلفة لها وظائف مختلفة هدفاً تلبية حاجات متبادلة وهو هنا يشبه المجتمع الثقافي بالجسم البيولوجي المتناغم<sup>(٢)</sup> ولعل ما سبق يعد خير شاهد على انتقال عدوى عدم الفهم المفاهيمي بل وتوارث هذا الخطأ وتراكمه حتى يصبح حقيقة ملموسة ويختفي الوعي بذات المفهوم .

## ثانياً : النشأة والتطور :

إذا كان المؤرخون يذهبون إلى أن التاريخ هو ذاكرة أى أمة من الأمم فإن الثقافة هي عقل تلك الأمة وبالتالي فإن مقولة هيجل "التاريخ في قلب العقل" إشارة إلى أن الثقافة تمثل الحركة الجدلية لنمو العقل الإنساني فكانت الثقافة في العصور القديمة قبل الميلاد تعبر عن سرعة الحركة العقلية والجدلية فكانت الحياة أشبه بالحالة الصلبة للمادة بكل ما فيها ثم كان العصر الوسيط امتداد لذلك بيد أن نهاية ذلك العصر انبثقت منه بذور النهضة الأوروبية على يد الحضارة الإسلامية والتي امتدت ما بين القرن الثامن الهجري والثالث عشر الميلادي حيث لو أمهل القدر الإمبراطورية الإسلامية قرناً آخر من الرخاء والنمساك لكانت الثورات العلمية ذات تربية عربية إسلامية وتلك المرحلة حتى عصر النهضة كانت أشبه بالحالة السائلة للمادة والتي شكّل معها العصر

(١) رالف بيلز وهاري هويجر : "مفهوم الثقافة" ، ترجمة / محمد سيلا ، عبد السلام بن عبد العالى ، سلسلة

دفاتر فلسفية ، ( الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر ، ج(٢) ، ط(٢) ، ١٩٩٦م ) ، ص ١٣ .

(٢) محمد فايز الطراونة : الأنا والآخر وهدم النمطية ، ( الكويت ، المجلس الوطنى ، مج(٢٧) ، ع(٣) ،

١٩٩٩م ) ، ص ٢٨٠ .

التفويرى والنهضوى من قبل الثورة الصناعية حتى القرن التاسع عشر إلى أن انبثق الكمبيوتر فى منتصف القرن العشرين فكانت الحالة الغازية للمادة - للعالم - والآن نحن نعيش حالة البلازما العالمية .

هذا ويُعد الإنسان هو الكائن الحى الوحيد فى ظننا الذى يحاول أن يفهم ويعرف ما حوله ومن هو يحاور الطبيعة مستعينا بخبراته وتجاربه التى ترسبت مع الزمان فى الذاكرة الجمعية أى مستعينا بالتراث الثقافى مستعينا علاوة على فعله النشاط ذلك لأن الطبيعة لا تحاوره أو لا تكشف عن نفسها فى ثوب واحد على نحو نمطى وإنما متغيرة أبداً وجودياً من حيث صورتها فى الوعى مع التغير الحضارى الثقافى (١) .

وإذا ما دققنا النظر فى الإنسان لوجدناه كائناً بيو ثقافى حيث كل فعل إنسانى هو فعل بيوثقافى ( الأكل ، الشراب ، النوم ، الرقص ، التفكير ) فالإنسان كائن بيولوجى كلية فمثلاً أنشطته الروحية والفكرية والنفسية هى أنشطة حية وحيوية ومن حيث كونه كائناً ثقافياً كلية فإن الأفعال البيولوجية هى أيضاً الأفعال الأكثر انطباعاً بالثقافة ( الميلاد ، الموت ، الزواج ) فالأسرة مثلاً هى بنفس الوقت نواة لإعادة الإنتاج البيولوجى للأفراد ومدونة ثقافية تُشكل فيها تربيئنا وخليئة اجتماعية تشكل جزءاً من مجموع أوسع (٢) .

"وعليه لا يمكن أن يحدث اختزال ثقافى فى تاريخ العلوم ومجالات المعرفة المختلفة لأن الثقافة تتضمن أيضاً نقل تلك المعرفة وتوصيلها بأشكال تحدث أثراً ثقافياً فكرية معينة" (٣) .

## ثالثاً : الثقافة غزو أم هيمنة أم اختراق :

### • الهوية الثقافية :

تشير الهوية الثقافية فى جوهرها إلى العرقية وهذه تميز جماعة بقول أفرادها أن لهم تاريخاً وأصولاً مشتركة وتراثاً ثقافياً خاصاً حيث تلتقى الهوية العرقية مع نظيرتها الثقافية فقط فى حالة القبلية البدائية المعزولة ، وإذا استطاعت تلك الهوية

- 
- (١) شوقى جلال : ثقافتنا والإبداع ، سلسلة لقرأ ، ( القاهرة ، دار المعارف ، ع(٦٢٧) ، ١٩٩٨م ) ، ص ٧ .
  - (٢) موان : "الإنسان كائن بيو ثقافى" ، ترجمة/ عبد السلام بنعبد العالى ، سلسلة دفاتر فلسفية ، (الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر ، ج(٢) ، ط(٢) ، ١٩٩٦) ، ص ص ١٣-١٤ .
  - (٣) كريستيان جاكوب : "جذور الثقافة الموسوعية" ، سلسلة مجلة ديوجين ، ( القاهرة ، مركز مطبوعات اليونسكو ، ع(١٧٨/١٢٢) ، (د.ت) ) ، ص ص ٣-٤ .

الثقافية - من وجهة نظر علماء الاجتماع - أن تكشف عن نفسها كظاهرة جماعية يمكن أن تَمْضَى في ثلاثة مستويات مختلفة :-

أ- البعد التاريخي      ب- البعد الاجتماعي      ج- البعد السيكولوجي

والتي تميز الثقافة بالديناميكية والارتباطية وقابلية الحركة والتغير (١).

ولعل مفهوم الهوية الثقافية يُعد توجهاً منبثقاً من مفهوم الثقافة يمثل بصمة عقلية لكل أمة على حسب منطلقاتها الاجتماعية بأنماطها المختلفة سياسية واقتصادية وتربوية وعلمية . . . ألخ ، ومن ثم فإن الهوية الثقافية تعبر عن مسيرة حياة المجتمع وسجله الحضاري وعليه فإنه يبذل - أى المجتمع - قصارى جهده للزود عن ثوابته وإن لم يكن عن ثوابته يكون عن متغيراته بغير الوعي بصيرورة تطور العقل البشري .

إذن الثقافة عبارة عن عناصر متعددة منها اللغة والدين والقراية . . الخ فإذا ما جمع بين جميع تلك العناصر نسيج واحد يستظل به عدد كبير من أفراد مجتمع ما فإنهم يصبحون على هوية واحدة (٢)

نخلص مما سبق أن الهوية الثقافية هي بصمة جينية جنينية لا يمكن تكرارها وأنها تحمل بداخلها مجموع جينات الجنس البشري لمجتمع ما منذ نشأة الجينوم البشري وبالتالي فإن مسح هذا الجينوم يُعد ضرباً من الخيال ومشروعاً استعماريّاً ضخماً يستوجب إلغاءه من كل فرد من أفراد المجتمع والتاريخ يعلمنا أن هذا العمل مستحيل .

## • الغزو الثقافي :

عند تحديد مفهوم الغزو الثقافي نجد أن هناك آراء متضاربة عن المفهوم كشيء في ذاته وأيضاً عن وجود غزو ثقافي في الأصل فالبعض يرى أن أي ثقافة ومنها الثقافة العربية محصلة تلاقح ثقافات عديدة مثل اليونانية والنازية والرومانية والهندية . . الخ فكيف نُعد ما يوجد من تلك الثقافات لدينا غزواً ثقافياً طالما ثقافتنا ملقحة من تلك الثقافات بمعنى يذهب أصحاب هذا الرأي بأنه ليس هناك غزواً وآخرون يذهبون إلى أن ما يأتي إلينا من ثقافة تحمل عقائد واتجاهات وسلوكيات ومنتجات مادية من دول أخرى يُعد غزواً ثقافياً بيد أن إذا سلمنا بأنه ليس هناك ثقافة منعزلة أو ثقافة تتشأ من فراغ فإن الغزو الثقافي هو أداة متطورة لإحداث ما يسمى بالتلاقح الثقافي الذي لم

(١) سبيلم أبو : تَخْيِير الهوية الثقافية" ، سلسلة مجلة ديوجين ، (القاهرة ، مركز مطبوعات اليونسكو ، ع/١٧٧)

(١٢١) ، (د.ت.) ، ص ص ٥٠٧ .

(٢) حسين شاويش : "مفهوم الثقافة ، وتحديد الهوية" ، مجلة دراسات عربية ، (بيروت ، دار الطليعة ،

ع/١٠/٩) ، (١٩٩٩م) ، ص ص ١٥،١٤ .

يتوقف طوال التاريخ ، إلا أن هناك ثوابت لدى كل ثقافة لا يمكن غزوها وإذا ما حدث ذلك يعد غزواً أما المتغيرات فتتطلب التزاوج وإلا توقف نمو الكيان الموروثي للفكر الاجتماعي البشري (١) .

هذا ويمكن وضع تصوراً عما يحيط بمفهوم الغزو من غموض إذ نجد أن الغزو الثقافي منهج إمبريالي استعماري أستخدم عندما سقطت الأتقعة الاستعمارية التي استخدمت الآلة العسكرية ومع ذلك فإن هذا المنهج الجديد للاستعمار له آليات عديدة منها السياسة والاقتصاد والتجارة والإعلام وثقافة الصورة والكلمة والسندوتش والأكلات سريعة الإعداد أى يستند إلى نمط استهلاكي لأن مؤسسات الدول مع عدم جدواها حالياً إلا أنها تُعري الأعييب الاستعمار .

هذا وبعد الغزو الثقافي محاولة تستهدف غسيل ثوابت الماضي السحيق لصالح الانفتاح والمتغيرات الموجهة كالهندسة الوراثية التي تخرج لنا نوع من الفراولة ولكنها بحجم البرتقال كذلك يراد بالإنسان وإن كان ذلك يؤدي في مجموعه إلى ضرب وإنهاء هوية الشعوب إلا أنه جريمة تاريخية يُريد بها الاستعمار إنهاء محصلة الكائن البشري في العبور إلى المستوى الإنساني وذلك بالقضاء على المكتسبات العقلية التي جعله الله بها سيد هذه الأرض إذن فالقوى الاستعمارية تناقض نفسها تدعو إلى عقلانية الحياة ثم تكرر إمكانياتها لهدمها لدى الشعوب الأخرى فهناك إذا ازدواجية تستحل لنفسها ما تحرمه على غيرها وهذا يقود بالفعل إلى ما يسمى بالعنصرية وسمو جنسها على الأجناس الأخرى التي ينبغي ألا يكون لها تاريخاً ثقافياً يحوى هويتها حتى يتوفر لديهم ما كان قديماً وهو المادة الخام للعبودية والرق الثقافي وتصبح دول العالم الثالث الفقير قطعاً من الحيوانات المعاصرة ليستعويض بها عن الحيوانات المنقرضة بسبب عدائه وسلوكه مع الطبيعة ولعل ما ذهب إليه العالم بخصوص الاستتساخ محاولة صريحة لذلك .

## • الهيمنة الثقافية :

وإذا ما تناولنا مفهوم الهيمنة الثقافية لوجدناه مفهوماً تطورياً عن مفهوم الغزو الثقافي بما يتوافق ومتغيرات الحياة السياسية والاقتصادية فيما يُعرف بالحرak الاجتماعي العالمي أو بما يطرأ على تضاريس الحاجات الاجتماعية وما يترتب عليه من استجابات لمؤسسات الدولة الفكرية والعلمية وكذا استجابات أفراد المجتمع إلى مواجهة تلك التحديات بتضمين الإيجابيات ومناهضة السلبيات .

(١) محمود أمين العالم : الوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر ، ( القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ،

١٩٨٦م ) ، ص ص ١١٧ .

هذا ويمكن صياغة مفهوم الهيمنة باعتباره سيطرة القوى المهيمنة على الميراث الثقافي والثابت فيه وليس فقط بل تضليل عوامل التغيير في هذا التراث بما يجعل تلك الثقافة في حالة اللاتوازن فلا يميزون بين الثابت والمتغير فيؤدى ذلك إلى برمجة المجتمع لتحقيق أهداف المجتمع المهيمن دون رد فعل كما يفعل الفيروس عندما يدخل الخلية يهيمن على صفاتها الوراثية ويوجه الخلية إلى العمل لصالحه وإنتاج فيروسات جديدة .

الأمر الذى يجعل من الهيمنة عامل خطورة على الثقافات وهذا يُعدّ طوراً بالغ الخطورة من تطور الفكر الاستعماري كالمرحلة التي يصل فيها الفيروس إلى السيطرة على آليات عمل واتصال العضو البشرى ثم إعادة برمجته لتحقيق أهدافه .

ولعل ما مرت به البشرية من موجات حضارية يبرز كنه هذا المفهوم حيث عاشت المجتمعات البشرية صداماً بين مد ثلاث موجات حضارية بدأت بالحضارة – الثورة الزراعية – الزراعية التي كانت لها أيديولوجياتها السائدة ثم تبعها الحضارة الصناعية بعد عشرة آلاف سنة فبدلت وجه الحياة على الأرض وفرضت أيديولوجياتها العليا على مدى ثلاثة قرون التي اعتمدت على ثلاث عقائد أساسية هم :-

- عقيدة حق الإنسان المطلق في استغلال الطبيعة حتى لو قاد ذلك إلى استنزاف موارد الطاقة غير المتجددة وتلويث الغلاف الجوى .
- عقيدة تعتبر الإنسان قمة التطور على الأرض وأن الحضارة الصناعية أعلى أشكال التطور الحضاري الأمر الذى برر استعمار الشعوب لها واستغلال ثرواتها<sup>(١)</sup> .

أما موجة المد الحضاري الثالثة التي يرى البعض أنها سوف تكتمل خلال عدة عقود فقط حيث يسير التاريخ بتسارع كبير في عصرنا هذا ... ويذهب صاحب هذا الرأي أن تلك الموجة سوف تؤثر على كل فرد منا ، فالأسرة مجزأة والاقتصاد محطم والأنظمة السياسية مشلولة والقيم تضرب بعرض الحائط وهي تتحدى علاقات القوى السائدة وامتيازات النخب المعرضة للخطر وتقدم الأرضية التي ستنصارع عليها قوى المستقبل<sup>(٢)</sup> .

(١) راجى عنایت : ثورة حضارية زلخفة ، ( القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٨٧م ) ، ص ص ٩ ، ١٠ .

(٢) ألفسن : " الموجات الثلاث " ، ترجمة / عبد السلام بنعبد العالی ، فلسفة دفاثر فلسفیه ، (الدار البيضاء ، دار

توبقال للنشر ، ع(٦) ، ١٩٩٦م ) ، ص ٣٢ .

وتذهب آراء أخرى أن سمات الحضارة الثالثة تتلخص فيما يلي<sup>(١)</sup> :-

- أمل جديد لدول العالم الثالث التى لن تكون مضطرة فى تطويرها إلى الالتزام الأعمى بنمط مجتمعات الحضارة الصناعية.
- زيادة حجم الإنتاج الذى يقوم به المنتج لكى يستهلكه وليس لتقديمه إلى الأسواق للمبادلة وسيساعد هذا على انتهاء السيطرة الحالية للسوق على حياة البشر.
- انحسار سلطة الدول .

ويسوق آخرون خصائص الموجة الثالثة التى نوجزها فيما يلي<sup>(٢)</sup> :

- المركزية الشديدة . - فلسفة السعى نحو الحدود القصوى فى كل شئ .
- التزامن . - التوحيد القياسى أو النمطية .

بهذا الاستعراض لموجات المد الحضارى المتصادمة نجد كيف يستمد الاستعمار أسلوب عمله الجديد على حسب نمط الحضارة السائد فأحيانا غزواً وأحيانا أخرى هيمنة ثم مع موجة المد الثالثة سوف يتغير المفهوم إلى شكل جديد اقترحه الكاتب وهو الإسقاط الثقافى والذى سوف يتم تناوله فيما بعد ورغم رؤية البعض بأن الحضارة الجديدة "سوف تكون عكس الحضارة الصناعية لا تؤمن بالقوالب النمطية مما يتيح للشعوب النامية أن تبني كيانها دون أن تضطر إلى إلغاء هويتها ومزاجها وعقائدها الخاصة"<sup>(٣)</sup> ومن خلال هذا التعارض بين ما تحدته تلك الموجة القادمة من مؤثرات يبرهن على قدرة الأيديولوجيا القادمة فى محو الثوابت الثقافية والتعمية عما ينبغى التوجه إليه فى المتغيرات الثقافية وهذه أقصى مراحل الهيمنة الفيروسية للثقافة المهيمنة وهى حالة اللاوعى .

## • الاختراق الثقافى .

بعد انسحاب الشيوعية كمعسكر وأيضاً كأيديولوجيا من الميدان وانفراد الغرب بقيادة العالم فإن الاستقلال السياسى والثقافى والأيديولوجى الذى كانت تمارسه بعض بلدان العالم الثالث - ومنها الدول العربية - لم يعد سندا يستند إليه فأصبحت العلاقة

(١) راجى عنايت : (مرجع سابق) ، ص ص ١١-١٢ .

(٢) راجى عنايت : العالم سنة ٢٠٠٠ ، سلسلة أعرب من الخيال ، ( القاهرة ، دار الشروق ، ط(٤) ، ١٩٩٥ م ) ، ص ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) راجى عنايت : ثورة حضارية زاحفة ، ( مرجع سابق ) ، ص ٧ .

السياسية والثقافية والأيدولوجية المتاحة مع الخارج وحيدة الاتجاه والتي يمكن تسميتها- بالعلاقة العامة -مع المركز بعلاقة التبعية وما عدا تلك العلاقة فهي حصار كلي أو جزئي - العراق وليبيا - وبالتالي تحول الاستتباع إلى الاختراق فتحوّلت التبعية الثقافية إلى عملية تكريس وترسيخ لتقافة الاختراق (١) .

هذا ويذهب الكاتب إلى أن ما يسمى هيمنة لم يعد يناسب ما أسفر عنه العلم كأيدولوجيا شهدت ثورة انشطارية لا يعلم مداها إلا الله عز وجل وكذا مفهوم الاختراق لأنه يوحي بأن هناك حصوناً وموانع تحول دون المرور وأداء مهامها التي أوكلتها لها أيدولوجيا المركز - الغرب - حيث صار العالم ليس قرية إلكترونية ولا كوخاً إلكترونياً ولكن عقلاً إلكترونياً فكيف إذا أن نسمى الأهداف الاستعمارية بالهيمنة أو الغزو أو الاختراق فكلها مصطلحات قوضتها تصادم الموجة الثالثة مع الموجة الصناعية الثانية تصادم موجة المنتهك مع موجة المنتج الذي يتبادل إنتاجه مع المستهلك في الأسواق بيد أن ما أسماه المفكرون المعاصرون بأن حضارة الموجة الثالثة حضارة المنتهك يُعد شيئاً دون الواقع وبمناخات خيالات حالمة فكيف يحدث ذلك بعدما أصبحت العولمة أيدولوجية القطب الواحد والتي أصبحت لها السيادة من خلال الأسواق المفتوحة بواسطة الشركات Multi -international ذات الجنسيات المتعددة والتي تذيب سلطة الدول فأين إذن المستهلك - الفرد ينتج إستهلك - هذا ويعد ما يقولونه اقتراحاً لمواجهة اقتصاديات السوق وسيطرتها ولكن لا يمكن تسميته نمطاً عاماً.

#### رابعاً : الإسقاط الثقافي :

إذا كان الاختراق الثقافي تمارسه على العالم - العرب وثقافتهم - ثقافتان متنافستان : الثقافة الأنجلو أمريكية والثقافة الفرنسية فإنه لا بد من تبيين أمرين هما : أن عنصر العلم والثقافة من مكونات الثقافة ولكن ليسوا من مكونات الاختراق بل أدوات للاختراق الثقافي وهذا يختلف عن الاختراق الذي مارسه الدول الاستعمارية في القرن الماضي عن طريق البعثات التبشيرية والذي مهد إلى اختراق ثقافي من خلال غرس نظام تعليمي لنشر الثقافة المعادية في دول العالم الثالث بعد حركة التحرر من الإمبريالية التي جذب فيها المتنوع التابع والتبعية التي يتبع فيها التابع الذي يشعر بالعجز تجاه المتنوع وكلاهما-التبعية والإمبريالية - يستلزم الآخر وأخيراً ظهرت وسائل ووسائط اتصالية أخذت تغتال العالم وثقافته بواسطة الاختراق الثقافي (١) .

(١) محمد عابد الجبري : "المسألة الثقافية" ، سلسلة الثقافة القومية ، (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ،

ج(٢٥) ، ١٩٩٤م ) ، ص ص ١٧٣ - ١٧٥ .

(٢) محمد عابد الجبري : المسألة الثقافية ، (مرجع سابق) ، ص ص ١٧٩ - ١٨١ .

هذا وإن كان " ابن خلدون " قد ذهب في مقدمته بأن المغلوب مولع أبداً باتباع الغالب فهذا وعى من ابن خلدون إذ كان ذلك أثر من آثار ما بعد الاستعمار - الغرب/العالم الثالث - فإن هذه العلة سرعان ما انتهت بسقوط حائط برلين والحرب الباردة وانتهيار النظام الشيوعي إلا أنه من الطريف أن الرأسمالية رغم انتصارها على الشيوعية تعتمد الرأسمالية في شكلها الجديد تستخدم العولمة كأيديولوجيا اشتراكية بآليات رأسمالية .

الأمر الذى يمهد إلى مفهوم الإسقاط الثقافى كبديل أيديولوجى وفكرى معاصر لمفاهيم ( الغزو - الهيمنة - الاختراق ) إذ لم تعد حواجز مادية أمام التعاملات وأساليب وأنماط الحركة الدولية وعليه فإن الثقافة تنهمر علينا من السماء على رؤوسنا بالبروشنات الإلكترونية تدخل بيوتنا وعقولنا من الهواء سواء شئنا أم لم نشأ سواء أغلقنا أجهزة الاستقبال أم لا فالأقمار الصناعية والإنترنت وشبكة الألياف فائقة السرعة المعروفة بثورة "الأنفوميديا" والأطباق الهوائية كلها أدوات منهج استعماري آلياته الإسقاط الثقافى .

هذا وفى غضون ما تقدم تصبح الثقافة فى مواجهة أزمة تحتاج إلى تشاركية لقطاعات العمل المختلفة بالمجتمع لوضع استراتيجية للتعامل مع هذا المنحى الخطير تبدأ من فكر واقعى يستلهم أصوله من ثوابت الثقافة وتجارب وخبرات التراث الإنسانى ولدينا التجربة اليابانية التى قمت بترجمتها بعنوان التكنولوجيا الغربية والروح اليابانية التى كشفت لى عن اعتماد اليابان على استقدام الخبرات التكنولوجية من فرنسا - الغرب - فى الوقت الذى كانت مصر تستعير تلك التكنولوجيا من فرنسا سنة (١٨٠٥م) إلا أن اليابان تقدمت ونحن تخلفنا لأنها - أى اليابان - أخذت التكنولوجيا دون أيديولوجيا أو الشخصية القومية الغربية دون الفكر الغربى فحافظت على هويتها وجعلت لها -أى التكنولوجيا الغربية- روحاً يابانية .

فالإسقاط الثقافى أصبح يصاحب السلع التى تروج لها العولمة فى الأسواق الإلكترونية ليس فقط بل يبيعون تلك الثقافة المصاحبة ويجعلون لها معايير فى التداول بعدما أكدوا أن العالم أدمن مادتهم وأنماطهم الإعلامية حتى بات يتألم عندما تغيب عنه وأصبح يلح فى طلبها حيث تكون تلك الثقافة فى وضع ما بين عينيه وأذنيه ولا يستطيع أن يتلقاها دون أن يستخدم الوسائط التكنولوجية التى تروج لتلك الثقافة والثقافة التكنولوجية .

وسوف يتم تناول آليات هذا الإسقاط الثقافى فيما بعد فى فصل التحديات ، هذا ولا يعنى ما سبق فناء مفهوم ( الغزو - الهيمنة - الاختراق ) ولكن تكون السيادة لمفهوم الموجة الجديدة وهو الإسقاط الثقافى مع وجود حالات فردية سياسية واقتصادية

وثقافية وأسرية عالمية تعكس المفاهيم المندثرة والتي تتجلى فيما أثير حول قضية تأجير الأرحام مؤخراً كما يلي :-

بادئ ذي بدء أصلى وأسلم على الرسول الحبيب ﷺ الشفيح وأحمد الله على إهدائه لنا النبي الأمي محمد رسول الله ﷺ أقول وبالله التوفيق في قضية تطوع أو تأجير رحم أم لإنبات فيه جنين لرجل وامرأة آخرين ، إن هذا الأمر يعترضه عقبات عديدة لم يتطرق إليها الدكتور " بيومي " ولا مجموعة النقاش في برنامج بدون رقابة في أبريل ٢٠٠١ م :-

## أولاً : قضية شرعية تأجير الأرحام :

مفهوم الزنا هو دخول منى الرجل إلى رحم المرأة في حالة جماع جنسى غير شرعى أو جماع جنسى فقط دون نزول ماء الرجل أو معاشرة جنسية بأى شكل من الأشكال في غياب الشروط المشترعة ، وهذا هو الزنا الأكبر إلا أن هناك زنا أصغر كما روى الإمام الترمذى عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت ومرت بالمجلس فهي زانية زانية زانية " صدق الرسول الكريم ﷺ وهنا التحريم بالزنا واضح حيث تثير المرأة بعطرها شهوة وغرائز الرجال فهو فى رأى زنا أصغر فهو يمهد للجماع الجنسى غير الشرعى فإذا كان الرسول ﷺ يطلق عليه زنا فما بالنا إذا بالجماع الجنسى غير الشرعى الذى يتم فى شكل علمى معاصر - أى يجدون له مبرراً علمياً لجعل الباطل حقاً "تأجير الأرحام" - بيد أن نقل بويضة مخصبة من حيوان منوى لرجل مرتبط بامرأة شرعياً يؤخذ منها بويضة تلقح بهذا الحيوان المنوى فى الخارج ثم تنقل إلى رحم امرأة أجنبية عن الرجل وزوجته فهذا فى رأى وبالله التوفيق ليس زنا فقط لكون الجنين ناشئ عن حيوان منوى لرجل أجنبى بل يُعد سحاقاً معاصراً فالسحاق المحرم فى الأزمنة الغابرة كانت لا تستطيع فيه إدخال المرأة مائها داخل رحم المرأة الأخرى أما العلم الآن بما وصل إليه من ثورات تقنية فى ميدان العلوم الطبيعية والامبريقية يعطى رخصة لمثل هذا السحاق ليتم على أعين وبصيرة وتحت مباركة الجميع بأدواته - أى العلم - المعاصرة ولعل قول " أينشتين " عجيب أمر العلم هذا فى زمن الحرب يزقنا ويلات الدمار والألم وفى زمن السلم يجعل حياتنا قلقه ومتوترة ولعل نبوءات العالم الفيزيائى "هرمان كاهن" بنهاية النوع البشرى بوصفه إنساناً عارفاً وظهور نوع جديد يكون هو نفسه من خلق الفاعلية البشرية كل ذلك يؤكد على خطورة تطبيقات العلم .

## ثانياً : قضايا أخلاقية :

هذا ويقول "سكندر" نحن لم نر بعد ما يمكن أن يصنعه الإنسان بأخيه الإنسان هذه المقولة كانت بمثابة ناقوس الخطر تحمل وتنعكس الطموح وما يكتنفه من مخاطر .

. . كما عارض مؤتمـر "جوردن" بالولايات المتحدة سنة (١٩٧٣م) أبحاث الوراثة المعاصرة لما تحمله من أخطار على الإنسان التي ما قامت إلا على القيم ويشهد بذلك "ابن خلدون" الذي عاش ما بين (١٣٣٢م - ١٤٠٦م) بأن الأمم تتهاير بانحلال أخلاقياتها وتحل محلها حضارات أخرى كل ذلك بسبب انغماسها فى الانهيايات الأخلاقية .

وعليه فإن المعضلة والعقبة الأخرى كيف نضمن أن الطبيب سوف يستخدم منى الرجل مع بويضة زوجته بعدما كُشف النقاب فى أمريكا مؤخراً عن طبيب أجرى آلاف الولادات الأنبوية باستخدام منيه وإبادة منى الرجل المتزوج بالمرأة صاحبة البويضة وقد أذيع ذلك الخبر منذ عامين على شاشات التلفاز المصرى ثم أتسائل وأخص الدكتور " عبد المعطى بيومى " هل تأمن ذلك لابنتك أو لنفسك أن تضع منيك وبويضات زوجتك لطبيب يجلس بنفسه فى المعمل ليضع لهلوسة الشيطان فإذا كانت الأعضاء التناسلية عورة فى المرأة والرجل فمن باب أولى أن يكون ما يحفظ فيهما أشد عورة وحراما .

هذا وقد ولدت أول طفلة أنابيب سنة ( ١٩٧٨م ) بإنجلترا وقد نادى الكثيرين بتأسيس تشريع جديد لإخضاع كل من بحوث وخدمات تكنولوجيا الإخصاب الصناعى لـسرقابة حكومية فما بالنـا بالمسلمين إذا كان هذا هو شأن الدول المادية القائمة على المذاهب التجريبية النفعية العلمانية مسيحياً ومن الطريف أن الحكومة البريطانية لم تسند البت فى ذلك لطبيب أو محامى متخصص بل أسندته إلى أستاذة فلسفة فى ميدان الأخلاق عموماً والأخلاق الوجودية خاصة ، وعليه ينبغى مثل هذه الأمور لا يترك فيها البت إلى أشخاص تدفعهم أهوائهم إلى إرداء المجتمع مواضع المهالك .

### ثالثاً : قضايا علمية :

الأمر الذى دفع عالم الحياة الفرنسى " رينيه دوبر " إلى القول بأن العلم يهتـم اليوم بتهديم القيم الأخلاقية والدينية والفلسفية دون أن يجد بدائل لها توجه سلوك الإنسان وتأخذ فى الاعتبار العلاقة بين منجزات الثورة البيولوجية وقانون المجتمع .

إلى هنا نلخص معضلات إيداع أجنة فى رحم امرأة أجنبية أو امرأة بنكية للأجنة أو امرأة تمثل مزرعة لتربية الأجنة أى تسمية من تلك يمكن أن تسرى على تلك المرأة التى تعتبر زانية وفق مؤشرات ( القرآن والسنة والمنطق ) بإدخال منى وبويضة رجل وامرأة أخرى وأيضاً ممارسة السحاق حيث ملامسة الرجل يعد حرمانية لامرأة أجنبية أم إدخال جزء من هذا الرجل فى رحمها فى رأى يكون زنا بعينه ، فإذا كانت المخدرات والأفيون والحشيش مدمرة للإنسان ويعاقب عليها القانون بالإعدام للتجار بها فإن الذى يذرع الخشخاش أو أنثى نبات القنب الهندى يسرى عليه حكم الإعدام رغم أن النبات مرحلة أولى فى طريق تخليق المخدر وعليه فإذا كان إدخال حيوان

منفوى غير شرعى لجوف امرأة أجنبية يعد زنا فإن إدخال مركب من حيوان منوى وبويضة يعد زنا وإلا كان الأفيون الناجم عن زراعة النبات - أنثى نبات القنب - غير محرّم ، وعلينا إذا بنشره واستيراده من الخارج وتوزيعه على البطائق التموينية !!

هذا ولنا أن نتخيل شكل القضايا التي سوف يواجهها القضاة فى المحاكم عندما تُطلق الأيدى للعبث فى مثل تلك الأمور والتي سوف تؤدى بالمشرع الوضعى إلى صياغة قوانين تغوص بنا فى العديد من المشاكل والقضايا الميراثية ، فلو سلمنا جدلا بجواز ذلك الأمر فالأم التي تحمل بالجنين لها حق فى الجنين لأنها حملت وعانت فيه وله حق ميراثها حيث قال الله " وحمله وطاقمه ثلاثون شهرا " وأقسم بالله أن هذا الأمر سوف يقودنا إلى جدال لا يعلم مدهاه إلا الله ، فيحكم تلك الآية يكون الولد من حق التي ولدته ثم هل يتزوج بنت المرأة التي ولدته بالإيجار أم لا كما يؤكد أنه لا يوجد أى تشابه بين ذلك الأمر والرضاعة لغير الأم الأصلية فالرضاعة أمر عابر أما الحمل والولادة أمرا يختلف وهناك قضايا كثيرة تحتاج إلى عشرات المقالات والتي رفضت نشرها الأخبار والأهram .

تأجير الأرحام بحكم فتوى الدكتور " بيومى " يوقع المجتمع فى استحلال محرمات حرّمها الذكر الحكيم كأن تتطوع أخت المدام لإنجاب طفل لأختها وبذلك تكون هناك جرائم بثلاث رتب فى الحرمانية أولهما زنا مع رجل هى محرمة أصلا عليه ، سحاق مع أخت لها محرمة عليها أو على غيرها شرعا ، زنا لرجل مع امرأة لا يحل له الارتباط بها شرعا إلا بوفاة أختها المتزوجة بذلك الرجل .

## محمد كُتَش

### خامساً : ثقافة + حضارة = مدنية :

يعرف فرويد الحضارة بأنها مجموع الأفعال والمؤسسات التي تبعد حياتنا بواسطة عن أسلافنا من الحيوانات والتي تخدم غايتين الأولى حماية الإنسان من الطبيعة وتنظيم علاقات الناس التي ينشأ فيما بينهم قلق فى الحضارة فالعلاقات العمودية مع الطبيعة تثنى إذن العلاقة القائمة بين الناس لتحديد الواقعة الحضارية فى شموليتها<sup>(١)</sup> .

ويرى " ألفرير فيبر " أن الحضارة هى جملة المعارف النظرية والتطبيقية غير الشخصية والتي يُعترف بصلاحيّتها وتناقلها على المستوى الإنسانى بينما الثقافة هى

(١) بول ثوران أسون : " وظائف الثقافة " ، ترجمة عبد السلام بنعبد العالى ، سلسلة دفاتر فلسفية ، (الدار

البيضاء ، دار توبقال للنشر ، ع(٢) ، ١٩٩٦م) ، ص ٥٧ .

جملة العناصر الروحية والمشاعر والمثل المشتركة التي ترتبط في خصوصيتها بمجموعة بشرية في مجتمع معين ... ويقلب البعض تلك المقابلة بأن تصبح الثقافة جملة الوسائل الجماعية المستعملة في التغلب على الوسط الطبيعي (العمران والتكنولوجيا) وتصبح الحضارة جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان للسيطرة على ذاته ولتطوير نفسه روحياً وفكرياً . . . وعليه تصبح الحضارة هي الانتفاع المباشر بمعطيات البيئة من حيوان ونبات وأنهار والذي يتم - أي العمل الحضارى - على وجوه مختلفة كما تقوم المدنية على تأليف وتركيب المعطيات المادية للبيئة في صورة جديدة فهي عملية تحويل تقوم كما في حالة القوانين العلمية على قواعد موضوعية يرتبط فيها الشيء بوظيفته ارتباطاً عملياً وثيقاً (١) .

هذا ونجد مفهوم "فرويد" عن الحضارة مفهوماً غير واع ينم عن جهل بطبيعة الحضارة التي لا يمكن أن ينتجها سوى العقل الإنسانى حيث يجعل بدايتها الحيوان وهذا يتناقض مع البناءات العقلية المنطقية للحضارة .

## سادساً : نهاية العلم :

إننا التاريخ الحقيقي للعلم كان مع ولادة المنهج التجريبي على يد كل من ( بيكون ، لوك ، ميل ، هيوم ) وقد تطور إلى المنهج الاستنباطى الفرضى الحالى ولعل هذا التطور الذى بدأ منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين يكون ميراً لتطور العلم ، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك ، وهو أن العلم أصبح يافعا ثم شاخ ليترك الخلافة لأولاده وهى ميادين التكنولوجيا المختلفة .

هذا ولقد سجل التاريخ بحروف من نور جهود علماء بارزين كانت لجهودهم دوراً كان يمكن أن يسبب غيابهم تأخر الحضارة البشرية إلى وقت لا يعلمه إلا الله ، فجهود " واطسون " و " كريك " فى البيولوجيا الجزيئية وكذا " ماكس بلانك " فى الفيزياء و " اينشتين " فى النسبية وأيضاً " رازر فورد " و " طومسون " فى الكيمياء كانت لها عظيم الأثر فى الانتقال بالعلم من مرحلة إلى أخرى حتى وصل إلى مرحلة أصبحت المبادرة فيها لإنتاج العلم وهو التكنولوجيا وتراجع العلم .

إذا العلم منذ بدايته شأنه شأن أى شئ يحمل بداخله بذور الجديد والمعاصر الذى يحوى البداية الأصلية - يحمل بداخله بذور ذلك الأصل - فى حين ما يحدث فى التكنولوجيا ليس كذلك بل تتقدم التكنولوجيا من خلال الفكرة الخلاقة المبدعة دون أى اعتبار للتراث التكنولوجى أو العلمى ، حيث يعتمد التقدم على ذلك دون وجود أى بذور لجديد بداخل القديم ، ومن ثم فإن المنهج الملائم لعصر التكنولوجيا هو Beyond method (meta-physics) فى التفكير فقط أما منهج التكنولوجيا هو الأداة والذى

(١) شبل بدران ، أحمد فاروق محفوظ : أسس التربية ، ( مرجع سابق ) ، ص ص ٩٩-١٠١ .

يُتحقق بالاتصال الكشفي المباشر ، وبذلك يقتصر المنهج المذكور أنفاً على البدعة والفكرة دون أى إجراءات أو خطوات ؛ فقط التفكير .

هذا ويعد منهج العلم والعلم ذاته من بقايا الألفية السابقة وحق علينا أن نضعهم في متحف بجوار كثير من الأعمال و الإنجازات التي مر بها التاريخ البشرى ، ومن ثم ينتهى العلم لثرتاد التكنولوجيا دورها فى نقل البشرية إلى مستوى حضارى جديد فلنقل وداعاً لحضارة العلم ومرحباً لحضارة التكنولوجيا حضارة لا يعتمد فيها التقدم التكنولوجى على منهج أو إجراءات منهجية أو التراكم أو بذور الجديد فى التكنولوجيا التى تهيمن على القديم بل هى البدعة وشئ من الثورة التى ليس لها دور كبير لأن الثورة لحظية تتم فى ثوان معدودة التى تأتى غيرها فى ثوان أخرى حيث كلما تقدم الزمن كلما قلت فتر عمر النصف لأى ثورة ، فنحن نعيش حقبة لا يعلم الله إلا مداها .

ولعل ما تقدم يوضح شيئاً ، أنه إذا كان العلم فى الألفية الأولى أسهم بشكل كبير فى تنمية وإكساب المخلوق البشرى خاصية الإنسانية حيث فى نهاية حقبة العلم بدأ العلم يسلب الإنسان إنسانيته بل سوف يزداد شدة فى حقبة التكنولوجيا بيد أن حالة ولادة عصر التكنولوجيا التى كانت فى نهاية حقبة العلم تعد تعبيراً عن سلب الإنسانية كصفة طبعت الإنسان ككائن مفكر ومبدع ، فالإنسان سوف يتراجع عن إنسانيته ويفقد لغته من كثرة صمته لأنه لن يجد وقتاً يتحدث فيه عن أو مع أبناء جنسه بل سوف يكون الحديث مع الجنس الهجن من الإنسان و الكمبيوتر الذى سيتحدث كثيراً .

## سابعاً : التنوع الثقافى الإنسانى المبدع :

التنمية البشرية تنسب إلى الكائن البشرى الفرد وهو الغاية القصوى للتنمية والثقافة التى توضح كيف ينتمى الناس إلى الطبيعة وبيئتهم والأرض والكون ... وبالتالي فإن كل أشكال التنمية بما فيها التنمية البشرية تحددها فى نهاية المطاف عوامل ثقافية .. إذن الثقافة ليست وسيلة إلى تقدم مادم وإنها غاية وهدف للتنمية باعتبارها ازدهار للوجود الأدمى بكل أشكاله باعتباره وحدة متكاملة ... لذا يجب أن يكون المبدأ الأساسى هو تشجيع احترام الثقافات التى تتسامح قيمها مع سائر الثقافات والاحترام يتبع التسامح ويتضمن موقفاً إيجابياً حيال سائر الناس وترحبياً بثقافتهم .

هذا وتعتمد التنمية البشرية على السلام الاجتماعى وهو بدوره يتطلب أن ينظر إلى الفروق بين الثقافات لا على أنها شئ غريب غير مقبول أو مكروه ولكن على أنها

تجارب فى أساليب التعايش تحتوى على دروس قيمة ومعلومات للكافة والمزيد منها يفوق المواقف (١).

وبالتدقيق فى تعريف الإبداع أو الابتداع لغويا نجد أن إيجاد شئ غير مسبوق بمكان ولا زمان أى ما يطرأ على الوجود بغير مثال سابق . . . والمبدع فرد لا يختلف فى طبيعته ونوعيته عن الآخرين بل يختلف من حيث مقدار الخصائص والقدرات الدالة على الابتكار والتجديد ، ويرى البعض أن الشخصية المبدعة ذات صفات عديدة بعضها تعليمى وبعضها انفعالى ، وهى (٢):-

- الطلاقة الفكرية Ideation Fluency وتتضمن القدرة على إنتاج أكبر قدر ممكن من الأفكار عن موضوع معين فى وحدة زمنية ثابتة كما تشتمل على الطلاقة الترابطية Assciational وهى القدرة على إيجاد الترابط بين ما ينتجه من أفكار .
- الفضول المعرفى والأمانة الفكرية .
- المرونة الفكرية أى القدرة على تغيير الحالة الذهنية والأفكار كلما تغير الموقف .
- الأصالة أى القدرة على إنتاج الحلول الجيدة والجديدة ، ومن الطريف أن نجد المبدع لا يكرر أفكار الآخرين بل نزاعاً إلى الجديد والتجديد ..
- الإيمان العميق بعلاقة العلة والمعلول ..
- الصبر والدأب والمثابرة مع رغبة باطنية لنيل اعتراف وتقدير مجتمعه المتخصص أو العام .
- يبدو له كل شئ لافتاً للنظر .
- الميل إلى الدعابة والفكاهة والظرف .

الأمر الذى يحتاج منا إلى تدقيق فى نوعية الثقافة وتنوعها التى تقدم إلى النشء فالكيف المتناسق مع الكم يودى إلى نقلة كيفية - إبداع - سواء أدبى أو مادى يثرى الثقافة والتكنولوجيا فتنمو الحضارة لذا لا بد من أن تقدم الثقافة للإنسان فى أبعاد متعددة وليست فى بعد أحادي فيؤثر ذلك على الأفراد فيصبح لدينا مجتمعات عربية ذات

(١) خافير بيريزدى كويلار وآخرون : التنوع الإنسانى المبدع ، ( القاهرة ، مركز مطبوعات اليونسكو، تقرير

اللجنة المعنية بالثقافة والتنمية ، ١٩٩٨م) ص ٢٤-٢٥ .

(٢) شوقى جلال : ثقافتنا والإبداع ، ( مرجع سابق ) ، ص ٣٩-٥٤ .

تفكير نقارى لا يُنجى الشخص على مستوى المشاكل التحتية والشخصية ، كما نشير إلى أهمية الإطلاع على الثقافات الأخرى واحترامها ليس لذاتها ولكن للإفادة منها وللمناظرة بينها والكشف عن عناصر التلاقح التى تمت بينها والتي بواسطته وصل إلى المستوى الثقافى الحالى ليس فقط بل تخلق لدى المثقف نوع من الوعى بحركية العناصر الثقافية وكيفية نشأتها والعوامل الكامنة ورائها هل هى حاجات اجتماعية أم علمية كل هذا يودى إلى الإبداع .

## ثامناً : التربية والثقافة ( اتصال أم انفصال ) :-

يقول الكاتب الروائى الشهير "جيرم لورنس" أقول لكم تخلوا عن نماذج حياتكم إن لم تتغيروا فى كل يوم من أيامها تغيراً بالأخص يقوى مخيالكم وكم تمنيت لو ذهبت ببعض أقربائى وأصدقائى خارج المدينة لاكتبهم وانفحهم من جديد كما يقول "كونفوشيوس" خذ حكمة القدماء وسائر العصر بذا تغدوا معلماً لذا لا بد وأن تكون التربية حوارية فى تناولها للثقافة حيث يُعد الحوار هو التغذية المرتدة بين النقد والإبداع.

هذا وتعتبر التربية إحدى القوى الفاعلة المؤثرة فى تغيير المجتمع وكذلك الثقافة حيث يحوى التغيير الثقافى بداخله التغيير الاجتماعى والعلاقة بينهما جدلية وتبادلية عندما يصل التجديد الثقافى فى تراكماته إلى درجات فعالة فإنه يحدث تغييراً اجتماعياً والتغيير الاجتماعى يعبر ثقافى عن علاقات وأوضاع اجتماعية جديدة (١) .

وبالنظر إلى المجتمع نجد أن كلاهما فاعل ومنفعل بالآخر وبالتالي فإن ما ينتجه المجتمع من ثقافة يحتاج إلى مؤسسة مثل التربية لنقله والحفاظ عليه ومن ثم يحدث استثمار لطاقات الإنسان وإبداعاته وأن الاتصال بين التربية والثقافة ضرورة تاريخية للحفاظ على حياة الإنسان بالتوافق مع التغيرات وكل جديد فيكتسب تفرده بتفاعل المتغيرات مع سماته الشخصية لأن حياته فى الثقافة وأن التربية بمثابة الشريان من الدم والانفصال بين التربية والثقافة يودى حتماً إلى تخلف المجتمع والتجارب التاريخية كثيرة إذ فى الوقت التى تعجز فيه التربية عن الحفاظ على الثقافة وتناقلها وتميمتها يودى إلى ثبات المجتمع وهذا ينضح فى مجتمعات العالم الثالث ومنها المجتمعات العربية مما يودى إلى ما يسمى فى التاريخ الحضارى فترات التقهقر والركود .

ولعل ما يوجد من ازدواجية متوطنة فى العالم العربى بين ثقافتين يتمزق النشء تمزقاً كبيراً بينهما فهناك من ينادى بأجترار الثقافة القديمة - أصالتنا - وهناك من ينادى بنسب القديم والأخذ بثقافة الغرب لأن بها التقدم - الحداثة المعاصرة - مع العلم

(١) شبل بدران ، أحمد فاروق محفوظ : أسس التربية ، ( مرجع سابق ) ، ص ١١٥ .

بأن النماذج الصناعية الناجحة لدى الغرب والذي بدأ الغرب فى التخلّى عنها الآن ليست بالضرورة تكون ناجحة وصالحة فى أوطان أخرى تختلف عن الأولى فى كل شئ<sup>(١)</sup> وهذا "سادلر" يقول فى عهد الاستعارة فى الأنظمة التعليمية لا يمكن أن نقطف زهرة من هنا وهناك ثم نغرسها فى تربة مغايرة ثم ننتظر منها النمو فهى - أى النظم التربوية والاجتماعية - عبارة عن كائن حى اجتماعى يمثل عادات وتقاليد وأحداث تاريخية وحروب طويلة تعكس تنامى صيرورة الوعى الإنسانى فكيف إذن نضع تلك النظم أو الثقافات فى دول أخرى ونتمنى منها أن تأتى بنفس الثمار .

إذن التربية يعول عليها الانفصال والتواصل التاريخى والثقافى والحضارى والارتقاء بالبنية الاجتماعية والعقلية لأمة ما وإذا ما تتبعنا بالدراسة والبحث للأبعاد الاجتماعية ، السياسية ، الاقتصادية ، الثقافية ، الصحية ، الدينية ، التربوية ، الفكرية ... الخ ، نستطيع أن نستبين الطريق إلى الكيف - الثقافة - فى التراث ونتعرف على لحظات التقدم والتقهقر فى حياة المجتمع وكذا التعرف على المتغير التابع للكيف وهو الكم وبالتالي نستلهم من التاريخ الدروس المفيدة ، هذا من ناحية كما أنه لا بد من الوعى فى المجتمعات العربية بخطورة تسرب مثل تلك الأبعاد الوافدة من ثقافات ومجتمعات أخرى فيما يعرف بالغزو والهيمنة والاختراق والإسقاط الثقافى ، ولا نضع أنفسنا تحت ضغط الانبهار بالنماذج الأجنبية ، إذ يشهد أحد مخرجات هذا النموذج التربوى وهو "ليفى- شتراوس" الذى يؤكد أن الفكر الغربى لا يعتبر قمة الإنجاز البشرى الوحيد ، كما كان معتقداً من قبل<sup>(٢)</sup> فلقد كان النموذج الإسلامى العربى أساساً أفضى إلى النموذج الغربى حيث أكد المستشرق الألمانى "إدوارد ساخاوا" أن أبا الريحان البيرونى كان أعظم عقلية عرفتها العصور الوسطى ويحق لنا اعتباره أعلى مد بلغته العقلية العلمية آنذاك ، كما كان معنياً بالفلك والرياضيات والمباحث التجريبية قدر عنايته بالإنسانيات والحضارات<sup>(٣)</sup> هكذا كان النموذج التربوى الثقافى الإسلامى العربى ويحق لنا أن نفخر بذلك فلو أمهلنا القدر قرن من الزمان قبل مجيء "روجر بيكون" فى القرن الثالث عشر لكننا الآن أصحاب النموذج الغربى ولكن بالطعم الإسلامى وليس المادى الوضعى .

(١) محمد عابد الجابرى : "التربية ومستقبل التحولات المجتمعية فى الوطن العربى" ، سلسلة المجلة العربية للتربية ، (تونس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مج(١٧) ، ع (١) ، ١٩٩٧م ) ، ص ١٣١ .

(٢) السيد فسادى : "اتجاهات جديدة فى فلسفة العلم" ، سلسلة عالم الفكر ، ( الكويت ، المجلس الوطنى ، مج(٢٥) ، ع(٢) ، ١٩٩٦م ) ، ص ١٠٥ .

(٣) يمنى طريف الخولى : فلسفة العلم فى القرن العشرين ، سلسلة عالم المعرفة ، ( الكويت ، المجلس الوطنى ، ع(١٦٤) ، ٢٠٠٠م ) ، ص ٥٠ .

هذا وإذا ما تطرقنا إلى نقاط التقاء التربية العربية بمنظومة الثقافة نجد أنها تشتمل على فكر التربية ، لغة التربية ، تربية أهل التربية ، قيم التربية وصلتها بمنظومة المعتقدات ، إبداع التربية ... فنجاح التربية العربية رهْن بمدى تفهمها للعلاقة التربوية والثقافية وخاصة في ضوء محورية الثقافة في عملية التنمية المجتمعية وكون التربية قد أصبحت مرادف للتنمية في عصر المعلومات وقد عزا كثيرون فشل التربية في الماضي إلى إغفال العلاقة بينهما وبين الثقافة ولعدم الدراسة التاريخية لتطور التربية مع تطور المجتمع وتغير ثقافته (١) خاصة بعدما تحولت مفهوم الحاجة أم الاختراع إلى مفهوم الاختراع أم الحاجة وظهور أنماط جديدة للثقافة منها ثقافة المعلومات فنحن نعيش اقتصاد المعرفة وهو اقتصاد بلا وزنا ويؤكد "نم سميث" أحد علماء الاقتصاد العالمي بأن المعرفة هي أكثر أدوات الإنتاج قوة ويقول "بيكون" أن المعرفة قوة لذا فإن هناك حاجة إلى إعادة هيكلة الماهية الثقافية العربية في ضوء فكر إسلامي واعي بمتغيرات الواقع .

## تاسعاً : ابن خلدون بين الجهل بالأصالة واتهامات الحداثة .

اعتدنا على احتدام الصراع غير الجدلي - أي الجدل - حول التراث وعلى حد القول بين الأصالة والمعاصرة - يقصد الصراع - وأن البعض ذهب إلى الدعوة إلى الأصالة بعصبية والبعض الآخر تشبسوا بالمعاصرة متهما الفريق الأول بالإنحاد والتبعية وكذا متهما الفريق الثاني الفريق الأول بالتخلف مما دعى فريق ثالث للتدخل ووقف موقفاً محايداً توفيقياً يجد صدق لدى الجمهور وأيضاً للتخفيف من حدة الخلاف والنزاع ورغبة لتضييق هوة الجدل إلا أن سعى وجهد هؤلاء جميعاً لم يحقق الهدف الأسمى منه وهو تحويل التراث إلى نمط جديد في شكله وجوهره - أي يأخذ موقع المدنية فالحضارة تصبح مدنية التي تتحول في بوتقة الحوار "الاجتماعي التاريخي" إلى حضارة جديدة - بل ذهب كل ذلك أدراج الرياح وبذلك يكون الخلاف دائماً حول الشكل وليس حول المضمون خلافاً بين أصول متعددة وليس بين فروع الأصل الواحد رغم التكامل بينهم - أي الشكل والمضمون - من شأنه أن يؤدي بالسطحية والفسطحة إلى مثواها الأخير وخاصة في معالجة قضايا التراث التي عادة ما تبدأ بتوضيح كنه كلمة "تراث" الذي ذهب عدد من الباحثين على أنها إنجازات الماضي كله بكل عناصره ومحاوره الدينية والروحية والوجدانية والعلمية والأدبية والفنية والسلطوية والإدارية ... الخ .

إلا أن القطبية التراثية لها وجه آخر يدور الخلاف حوله من حيث وجوده فهل هو تراث في ذاته؟ أم أنه تراث لذاته؟ فالخيار الأول يعني أن التراث موجود ومحقق

(١) نبيل على : الثقافة العربية وعصر المعلومات ، سلسلة عالم المعرفة ، ( الكويت ، المجلس الوطني ،

ع(٢٦٥) ، (٢٠٠١م) ، ص ٣٢٢ .

بغير تدخل الإنسان فيه فهو سابق عليه والخيار الثاني يعنى أنه لا يكون تراث إلا بإدراك الإنسان له ، وهذا لا ينكر الأول غير أن تحققه فى ذاته مشروط بمعرفة وإدراك الإنسان له الأمر الذى جعل الموقف من التراث هو فى الحقيقة موقف من الحاضر وهذا يجعل البحث عن كيفية التعامل مع التراث أمراً ضرورياً حيث يرى البعض أن هناك أنواعاً من التراث وأنه ليس تراثاً واحداً على نطاق الأمة الواحدة مما حفز البعض على الانطلاق فى دراسة التراث من خلال رؤى أيديولوجية حيث منهم ما يعتمد على العقلانية النقدية العلمية التاريخية كمرتكز منهجى ومنهم من يستند فى معالجته على الإطلاق الإيماني وآخرون اتخذوا موقفاً سلبياً أكثر منه إيجابياً وهو الموقف التوفيقى مما أدى إلى مزيداً من التمزق والضياع وأيضاً الخروج عن المسار الطبيعى لتناوله - أى التراث - وجعل الأزمة تأخذ منعطفاً جديداً بالغ الخطورة وهو الصراع بين أصالة عربية ومعاصرة غربية من ناحية وأصالة غربية ومعاصرة غربية من ناحية أخرى .

هذا ما دعى الكاتب أن يتخذ من خلال أطروحته الجديدة مساراً تنويرياً جديداً وكذا أسلوب معاصر لتناول التراث بعيداً عن الرؤى المنهجية المتعصبة انطلاقاً من كونه - أى التراث - نتاج لظواهر سيكيولوجية فى الحاضر تصبح متغيراً مستقلاً لمتغير تابع فى الماضى وهو التاريخ وبالتالي بالقياس على مفاهيم الرياضيات بوصفياً أكثر العلوم صورية يصبح لدينا محورين للتغير - السينى والصادى - فلكل تغير اجتماعى سينى يتبعه تغير تاريخى صادى بمعنى أن الظاهرة التاريخية نتاج ظاهرة اجتماعية وأن الحدث الاجتماعى بمجرد وقوعه يصبح تاريخاً الذى ما يلبث أن يصبح اجتماعياً مرة أخرى فى شكل لا نهائى من التحولات (حضارية - مدنية) ، (مدنية - حضارية) ، (حضارية - مدنية)

(١) (١) (١) (٢) (٢) (٢)

وهكذا فحضارة أمس واليوم والعكس فكل منهم يستلزم النقص لتلد الأخرى فهكذا الأصالة والمعاصرة حيث التراث من خلال رؤى أيديولوجية يُعد أمراً خاطئاً وغير موضوعى فينبغى أن ننطلق فى الدراسة من خلال الاستناد إلى المقولة التالية : دراسة المحسوس تتطلب التجرد من المحسوس " بمعنى لابد من الخروج من التراث حال دراسته لتمثل الموضوعية وبعيداً عن اعتناق أى رؤى أيديولوجية فهذه واحدة وأن التراث ليس أنواع عديدة ولكنه واحد فى الأمة الواحدة بيد أن يكون ذو مستويات عديدة ليس للأمة الواحدة ولكن التراث واحد فى جميع أنحاء العالم عبر الصيرورة الزمنية التى تنتقل به من مستوى فى حضارة ما إلى مستوى حضارى آخر فى أمة أخرى وهذه الثانية كما ينبغى أن يكون الاحتكاك فى دراسته - أى التراث - من خلال العقلانية العلمية النقدية الجدلية كأداة تجريدية تحميه من الزلق وهذه الثالثة أما الرابعة فلا بد من تناوله فى سياق واحد يجمع بين العوامل البيولوجية والتاريخية بما فيهم من

عوامل فرعية أخرى أخذنا في الاعتبار مقولة "ديكارت" خير لك أن تعدل عن التماس الحقيقة إذا لم يكن ذلك بغير منهج " الأمر الذى يقودنا إلى أسلوب جديد لدراسة التراث المفتوح وهو استخدام فريق بحث تجمعهم كتيبة للشراكة ينبغى أن تكون ذات مداخل تعبر عن مناهج عديدة تبدأ بالوصف ثم التحليل ثم النقد لأننا - التراث - من موقع الآخر بعيداً عن أى اعتناقات إذا فالتراث يمكن إجلاء مفهومه بأنه جملة إفرزات العقل الإنسانى من فكر واتجاهات تترجم إلى سلوك فاعل فى حياة المجتمع سواء كان مادياً وكيفياً والذى يرقى به صيرورة العقل الإنسانى كدالة فيما يطرأ من متغيرات ترقى بالتراث إلى مستوى تقدمى جديد ، وهكذا لا يموت الرجل المريض - أى التراث - الذى ضل طريق علاجه من خلال التشخيص والتناول غير الصحيح أو إن صح القول المرض فيما هو الذى أصاب التراث .

إن غياب الوعى بمعالجة التراث سمة صبغت بها العقول العربية المعاصرة وهذا يرجع إلى تعيبب العوامل السيسسيولوجية والتاريخية كمتغيران أو على حد القول المحددات له - أى التراث - وكذا يرجع لأزمة بين الذات والموضوع فى تناول التراث لذاته أو فى ذاته الأمر الذى شوه مسار الضرورة التاريخية وأحدث تشييط لإفرزاتها وجعلها عقيمة يقتصر إنتاجها على إفرز حلقة دائرية مفرغة مما ولد حاجة ملحة لإزالة التراب الذى غطى كل قيم وثمرات من ماضينا الذى اتسم فى كثير من جوانبه بالإشراق والذى نهضت عليه أوروبا بدءاً من القرن ١٦ ، ١٨ فلم يتعدى رد الفعل الكلام وكثرة التسويات فقط بعد صمت اتسم بالسكون ليأخذ شكلاً جديداً من الصمت الاستاتيكي - رفضه ابن خلدون وأقره " دوركيم " فى علاجهما للظواهر الاجتماعية - مما أدى ذلك إلى تعاقب فترات من الجمود تنتظر ولو فترة استقراء واحدة تضع التراث على مسرح العقل الجدلى ينظمه قانون واحد وهو الديالكتيك ، الأمر الذى دعانى إلى استعراض بعض البحوث الذى قام بها أحد الباحثين من أبناء التراث وهو "محروث بن أحمد غبان" وكيل كلية التربية بالمدينة المنورة جامعة الملك ابن عبد العزيز بعنوان " إسهامات" ابن خلدون فى التربية المقارنة " مبينا فيه أسبقية "ابن خلدون" المولود فى سنة ١٣٣٢م على "مارك أنطوان جوليان" رائد هذا العلم ، كما هو شائع فى أول مقال صدر له فى سنة ١٨١٧م حيث كان البحث فى مجمله متواضعاً لا يرقى بدراسة تأصيلية مثل هذه ، نحتاج إلى نفاذ بصيرة وفهم لاستنتاج ظاهرة الدراسة الذى ما قصد لكتابة علم الاجتماع ولكن فطن أن دراسة الظواهر الاجتماعية هى الطريق الوحيد لتصحيح أوضاع مناهج دراسة التاريخ .

وهنا نعرض إنصافاً جاء على لسان عالمى التربية المقارنة "سيثوزارت فريزر" و " وليم بريكممان" كأحد أبناء الحداثة فى قولهما : من الواضح أن هناك أحد الرواد المنسيين من قبل العلماء المعاصرين فى التربية المقارنة وهو المؤرخ المشهور " ابن خلدون " لذا نستعرض عنوان المقال الحالى بشكل نقدى مستعرضاً هذا البحث الذى أساء إلى التراث كشيء فى ذاته وبعيداً عن الذاتية وقد أصيب وقد أخطئ وليس

لخطئى عيباً ولكن سمة من سماتنا ولو خُيرنا بين النقص والكمال لاخترنا النقص لأنه سر بقائنا لأننا لو اکتملنا لفنينا وهذا الشكل من التناول هو منهج ينتظم عمليات الفكر كما أنه منهج كوني يحكم به المطلق - المبدأ الأول - أو العقل المفارق للطبيعة وسائر ظواهره ومخلوقاته ، ويمكن استعراض ذلك فيما يلي :-

أولاً : اقتصرت الدراسات السابقة التى أوردها الباحث فى هذا البحث على شكل كتب وهنا خطأ بحثى ومنهجى مثل كتاب الموازنة فى أصول التربية المقارنة "لمحمد العرقسوسى" وكتاب الأيديولوجيا والتربية المقارنة "لعبد الغنى عبود" ودراسة بحثية تناولت ثلاثة كتب لكل من "ابن سحنون" ، "ابن مسكويه" ، " الغزالي" على الترتيب هى : آداب المعلمين ، تهذيب الأخلاق ، كتاب المعلم ، حيث يقول "الدرد بيبى" أن الباحث التربوى كلاعب الجولف الذى يضرب الكرة من حيث استقرت كذلك الباحث التربوى الذى يجب أن يبدأ من الواقع ومن حيث انتهى الآخرون وهذا قصوراً آخر كما اعتمد الباحث على القديم كلية مما يقود إلى الركود والتخلف على حد تعبير " فان دالين " ويبرز مدى الوعى الزائف الذى عاش فيه الباحث بالتراث .

ثانياً : وإذا ما انتقلنا إلى اتهامات الحداثة الممثلة فى علماء التربية المقارنة المحدثين والسبب تبرز ضعف الباحث من ناحية وسوء فهم العلماء المعاصرين من ناحية أخرى وكلاهما يكشف عن الأمية بالتراث وقد اكتفى الباحث بالاتفاق معهم تبعية دون الاختلاف الذى هو شريطة الإبداع والتى يمكن إجمالها فيما يلي :-

١- اتهم العلماء المعاصرين " ابن خلدون " بأنه ألحق الظاهرة التربوية بالاجتماعية وطبق عليهم قانوناً واحداً وهذا اتهاماً فى غير محله لأن المستقرى لتاريخ التربية فى الشعوب والمجتمعات القديمة يجد أن التربية مفرز من مفرزات المجتمع فلا تربية بدون مجتمع والعكس فيما وجيان لعملة واحدة وهى مصدر استمرارية الحياة ، ولقد أوضحت فلسفة John Dewey ذلك والتى وسعت الغرض من التربية من خلال :-

- جعل موضوعات التربية حقيقية مثل المواقف الحياتية .
- جعل مشاكل البيئة محورا لدراسة المناهج فى المدارس .

٢- انتقدوه بأن ملاحظاته ونتائجه التى جاءت على شكل تعميمات أنها ليست إلا فرضيات لا تعد كونها تفسر حالات جزئية وأقول وبالله التوفيق أن "ابن خلدون" ما عمم إلا بناء على ما شاهده حيث أكد على اعتماده على الملاحظة الحسية وظهر ذلك جلياً فى الفصل المعنون باسم " فى تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه " فى مقدمته فهو رائد للواقعية ومن بين تعميماته

"أن العرب أبعد الناس عن الصنائع" وهنا لم يخطئ في تعميمه حيث شواهد العصر الحديث أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن العرب يستوردون نواتج البحث العلمي ولا يستوردون أدواته ومهاراته وعندما يقال : "أن العلماء أبعد البشر عن السياسة" فلم يخطئ حيث لا يوجد ما يسمى عالماً خارج معمله حيث يحتاج الإنتاج العلمي للتفرغ هذه من ناحية كذلك تجربته الذاتية التي ساقها نتيجة خوضه غمار السياسة والتي انتهت بنفيه إلى "هنين" على يد أمير غرناطة وإيداعه السجن على يد سلطان المغرب حينئذ .

- ٣ -

كذلك اتهموه بأنه ذهب بعيداً في تأثير العامل الجغرافي على حياة البشر إلى الحد الذي يجعل الأقاليم المتطرفة كالحبشة وغيرها تؤثر في أخلاق البشر وصفاتهم وأشكالهم بدرجة تجعلهم حيوانات وأن الدين لديهم غائب والعلم كذلك مجهول وهذا صحيح إذا ونحن في هذا العصر ما زالت هناك ما يسمى بجزر أكلى لحوم البشر وهذا كافياً للرد على منتقديه كما أنه يعتبر رائداً للحتمية البيئية الجغرافية فقد سبق نتائج العلم الحديث وعلماء البيئة المعاصرين في دحض ما جاء به "جالتون ، وجنينيو " الذين أخرجوا أبحاثاً تؤكد موروثية الصفات الانفعالية والعاطفية يظهر في إصدار "جالتون " لكتابه وراثية العبقرية ( ١٩١٦ م ) كما دحض ما جاء به مؤسس علم الإجمام " سيزاري لمبوروزو " في تحديد المجرم من خلال علامات وصفات جسمية ووجهية وانتقالها بالوراثة ، فهو رائد في أسبقية دحض ذلك - بشأن الوراثة - وأن البيئة لها الكلمة الأخيرة وكذا إعجازاً كبيراً فقد انتقد ذلك قبل أن يولد العلماء الذين ابتدعوا ذلك .

- ٤ -

انتقدوه بأنه يتناول الظاهرة التربوية كماً إلا أن بعض المنصفين ذهبوا إلى أن الدول لم تكن تهتم بالإحصاء بوجه عام حتى تهتم بالإحصاء التربوي بوجه خاص وأقول أن التربية في عصره كانت تهتم بالنخبة وأن الإحصاء ليس من مميزاتها والذي بدأ في القرن التاسع عشر حينما دخلت التربية عصراً جديداً وهي التربية الجماهيرية رغم وجود الإحصاء منذ الأزل والذي كانت تعتمد عليه الجيوش في عتادها .

- ٥ -

ونأتى هنا إلى بيت القصيد الذي لم يتطرق إليه أحد من قبل الذي يعتبر اكتشافاً لا يقل في أهميته عن اكتشاف "مقبرة توت عنخ آمون" فقد اتهموه بأنه يضع التقييم في أول الفصل ثم يبرهن عليه ووصفوا ذلك بأنه استقراء ملفق ومتعسف إلا أن بعض المنصفين ذهبوا إلى أن ذلك يثبت طريقة علماء الهندسة في البرهان على نظرية هندسية ولكن العظيم الذي لم يفهموا مغزاه سواء الباحث الأمي بترائه أو العلماء المعاصرين ضيقى الفهم وأقول وبالله التوفيق أن ابن خلدون استخدم استقراء لم يُعرف إلا حديثاً وهو الاستقراء الضيق الذي يستلزم وضع

التعميم أو الهدف المراد الوصول إليه ثم يحاول إثباته حيث صنف الاستقراء حديثاً إلى نوعين هما : ضيق وواسع .

٦- كذلك انتقدوا ابن خلدون بأنه استخدم منهجاً جيداً من الناحية النظرية (الملاحظة - المنهج التاريخي - المنهج الاستقرائي - منهج المقارنة ) إلا أنه لم يستطيع تطبيقه في جميع الأحوال ، والرد الكافي في ذلك والذي وقف الباحثين أمامه مكتوفي الأيدي والمخ ففى عصرنا هذا نعجز أحياناً عن تطبيق المنهج العلمي أو بعض خطواته على مستوى العلوم الطبيعية والذي يستحيل في العلوم الاجتماعية رغم ما يتوفر من إمكانيات نظراً لعدم ملائمة الظروف أحياناً ولعدم الإمكانيات أحياناً أخرى فما بالنا إذا بخمسة قرون مضت من الزمن من الإمكانيات الحالية ثم نعتب عليه أنه لم يطبقه في جميع الأحوال .

وهكذا نتطبق أبيات الشعر التالية على أمثال هؤلاء الباحثين والعلماء الأجانب والتي قالها البابا " اسكندر " وهي : -

القليل من التعليم أمر خطر فإما أن تهمل بغزارة أو لا تترق منابع المعرفة فالجرعات الصغيرة منه تعيب وعينا بينما تعيده الجرعات الكبيرة إلى حاله الاتزان

والواقع أن الغزو والهيمنة المتمثل في قضية تأجير الأرحام كأحد بقايا المفاهيم المنتحية قد ابتدعه الغرب للغلب على عدم القدرة الشرعية على تعدد الزوجات لديهم ، إذ لا يتاح للزوج الارتباط بزوجة أخرى إلا بعد وفاة زوجته أو بعد رحلة طويلة ومكلفة في القضاء ، أما نحن فقد شرع الله سبحانه وتعالى لنا تعدد الزوجات فلما إنن تأجير الأرحام هذا من ناحية ، كما أن هناك أشياء يمكن إيجارها بالاشتراك كالمحلات بيد أن هناك أشياء مثل الأرحام يستحيل فيها اشتراك رجل مع آخر ولعل عندما أتاح الغرب ذلك بالرديلة أدى إلى تفشي أمراض كثيرة أخطرها " الإيدز " ولقد أردت إضافة ذلك التعليق لكي أضع الرؤية كاملة أمام القراء ولكي أضع حداً لمثل تلك المهازل .

## عاشراً : فسبحان الله :

الله في خلقه أيام فضل بعضها على بعض في الثواب والجزاء ، ليس فقط بل هناك ساعات أيضاً لها أفضلية عند الله سبحانه وتعالى ، وهذه الأيام والساعات واللحظات قد لا ندركها بعقولنا العادية أو قد نصيب بعضاً منها بالفهم ولكن كل ذلك على قدرنا ، لذا فمعجزة القرآن ممتدة ؛ لأن لكل عصر عقوله هي استيعاب ومحصلة الفهم الإنساني السابق لهذا القرآن الكريم ، وهذا سر تجده المستمر ، ولعل الله سبحانه وتعالى يخاطب دائماً أصحاب العقول الذين أعطاهم قدرة التفكير والتدبير .

هذا ونحاول هنا إستطلاع قدر عقولنا فى هذه المرحلة التاريخية التعبير القرآنى " فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون " (الروم : ١٧) فعند التدبر هنا نجد أن تعبير الله فى قوله " فسبحان الله " يعنى أو يعادل فى الثواب قيام الليل.. إذا كيف ذلك ؟ ، فعدد حروف " فسبحان الله " عشرة حروف ستة حروف فى كلمة " فسبحان " ، وأربعة حروف فى كلمة " الله " وإذا ما نظرنا إلى قول الرسول الكريم المفسر دائماً لكلام الله سبحانه وتعالى الذى أعده مفتاحاً لكثير من كنوز القرآن الكريم " من صلى العشاء والفجر فى جماعة كأنه قام الليل كله " فهذا ترخيص من الرسول ﷺ والذى لاينطق عن الهوى لأننا يمكن توفير عناء الليل كله باستمرار من خلال صلاتى العشاء والفجر ، إلا أن هذا الحديث جاء ليلقى الضوء على الآية السابقة ليعطى العقل المتدبر مؤشرات ودلائل توحى بأن كلمة " فسبحان الله " تعادل قيام الليل ، الذى لو حسبنا الفترة الزمنية من بعد العشاء إلى صلاة الفجر لوجدنا ساعاتها تعادل حروف هذا التعبير القرآنى فى فصل الشتاء ولو ذكرت " سبحان الله " فى آيات أخرى تعبر عن قيام الليل فى فصل الشتاء لفارق توقيت ساعة واحدة كما يحدث عند تغيير الفصول ولا نملك إلا أن نقول لله فى خلقه شئون ، وكان الله جل قدره يقول للإنسان بل ويهدى إليه رخصاً متعددة وممتالية ، لكى ينال من فضله عز وجل ما شاء وما قدر .